- ٩ -

صلح الحديبية

استعد المسلمون لخوض معركة غير متكافئة مع مكة رغم أنهم لا يملكون من السلاح إلا السيوف، وإذا بسهيل بن عمرو يركب بعيره متجها صوب المسلمين. . وكان سهيل ذكيا واسع الحيلة والدهاء، وقد جاء يفاوض النبى، وينهى هذا الوضع المتفجر القابل للاشتعال بين مكة والمسلمين، وطلب أن يعود النبى وأصحابه إلى المدينة، ويؤجلوا دخول مكة للعام القادم، على أن تخلو لهم مكة لأيام ثلاثة يؤدون العمرة، وأن تعقد هدنة بين مكة والنبى، ويكون للناس حرية الدخول فى حلف النبى أو مع مكة، على شرط أن يرجع المسلمون من يدخل الإسلام من أهل مكة ويهاجر إلى المدنية مادام دخل الإسلام دون أذن وليه. . وأن من يرجع إلى مكة من المسلمين لا ترده مكة إليهم !

وقبل النبى هذه الشروط، بينما ملأ الغضب قلوب المسلمين. . كيف يردون من يسلم إلى أهل مكة؟.

وكيف لا ترد قريش مسلما عاد إلى مكة؟. .

وكيف يعودون إلى المدينة وهم على مسيرة يوم واحد من مكة ولا يدخلون بيت الله الحرام. .

وكيف تنص المعاهدة على أن المسلمين عندما يأتون للعمرة فى العام القادم لا يأتون إلا بالسيوف فقط. .

ثم يبلغ الضيق بالمسلمين مبلغا عظيما، وهم يتذكرون مشهد النبى عليه الصلاة والسلام، وكان قد استدعى على بن أبى طالب ليكتب اتفاق الصلح. . وأمر عليا أن يكتب: « بسم الله الرحمن الرحيم». .

ويرفض سهيل ذلك، ويطلب أن يكتب كما تعود العرب باسمك اللهم. ويوافق الرسول !

وأمر النبى عليا أن يكتب:

-« هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو» . .

ويرفض سهيل ذلك ويطلب من على أن يشطب رسول الله تلك ويقول للنبى:

- لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك !!

ولكن اكتب اسمك واسم أبيك . .

ووافق النبى . .

وكانت الصيغة التى كتبها على بن أبى طالب:

-« هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمر . . ».

قبل النبى هذه الشروط الذى ظنها المسلمون مجحفة بهم، وبكرامتهم . . وبلغ الغضب الذروة عندما تصادف أن أقبل واحد من مكة يعلن إسلامه وهو أبو جندل بن سهيل بن عمرو . . وكان يجرر قيوده التى قيدها به أبوه، وهو يطلب من المسلمين حمايته . . وكان والده حاضرا فى مجلس الرسول فأخذ يضرب ابنه وهو يطلب من النبى أن يعيده إلى مكة على حسب الاتفاقية !

وقد بلغ من غضب المسلمين أن اقترب عمر بن الخطاب من أبى جندل وهو يظهر له سيفه، حتى ينتزعه من عمر ويضرب به والده . . ولكن أبا جندل لم يفعل ذلك . . وأمر النبى أن يعود أبو جندل إلى مكة . .

بلغ الغضب الذروة فى صفوف المسلمين . . فقد وجدوا فى هذا المشهد إهانة . . مسلم يستنجد بهم . . ولا يستطيعون حمايته، بل تبلغ وقاحة أبيه أن يضربه أمامهم وهو يطالب النبى بتنفيذ الاتفاقية !

وقال النبى لأبى جندل:

-« يا أبا جندل اصبر واحتسب فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجا ومخرجا»..

كم كان النبى عظيما.. وقد ضبط أعصابه، فلم يغلب على سلوكه هوى من غيظ أو غضب أو غيره، وإنما كان ينفذ ببصيرته الملهمة أمر الله.. وأمر الله غالب رضى الناس أم سخطوا، فالناس لا يعرفون تصاريف الأقدار.. والله غالب على أمره.. فما كان المسلمون يرونه ضعفا وهوانا واستسلاما، كان فتحا مبينا..

ولكن الأفهام عجزت عن الفهم فى هذه اللحظة الحاسمة من التاريخ الإسلامى، حتى أن عمر بن الخطاب نفسه، قد ذهب إلى الصديق، وهو ضائق متبرم من هذه الاتفاقية..

- أليس محمد برسول الله ؟

- بلى

- أولسنا على الحق !

- بلى

- أليسوا بالمشركين ؟

- بلى

- فعلام نعطى الدنية فى ديننا ؟

- الزم غرزك (رحلك) فانى أشهد أنه رسول الله..

- وأنا أشهد أنه رسول الله.

ويذهب عمر إلى النبى عليه الصلاة والسلام، والغضب يعتصر نفسه.

- يا رسول الله ألست برسول الله ؟

- بلى

- ألسنا على الحق وعدونا على الباطل ؟

- بلى

- فعلام نعطى الدنية فى ديننا.

- أنا عبد الله ورسوله، ولن أخالف أمره ولن يضيعنى..

ومع كل هذا فإن ابن الخطاب لم يهدأ.. يعتصره القلق والألم ويذهب إلى الصديق. صاحب الرسول العظيم.. الذى لو وزن إيمانه بإيمان نصف الأمة لرجح.. والذى سمى صديقا لإيمانه العميق بدعوة صاحبه.. وهو الذى ذهب إليه أهل مكة بعد أن أعلن الرسول إسراءه.. لعلهم يرون فى هذا القول ما يرد أبا بكر عن الإسلام. فإذا بهذا المؤمن العظيم يقول لهم:

- أى بأس؟ انى لأصدقه فيما هو أبعد من ذلك.. أصدقه فى خبر السماء يأتيه فى غدوة وروحة.. إن كان قال فقد صدق..

هذا الصديق العظيم يأتى إليه عمر..

-« يا أبا بكر ألم يذكر لنا رسول الله أننا داخلون مكة، طائفين بالبيت محلقين ومقصرين!».

ورد عليه الصديق:

-« ثكلتك أمك يا ابن الخطاب.. أذكر لنا أننا ندخله هذا العام ؟ انه رسول الله فاستمسك بغرزه حتى تموت»..

وطلب النبى من أصحابه أن يتحرروا.. ويحلقوا ويحلوا.. ولكن المسلمين كان الغضب قد أعمى عيونهم فلم يسمعوا كلام الرسول ..ودخل النبى خيمته حزينا، وكانت معه زوجته أم سلمة، التى سألت النبى عما أحزنه.. وعلمت منه كيف أن المسلمين لم ينفذوا ما أمرهم به !!

وأشارت على النبى أن يخرج ولا يكلم أحدا، وينحر فديته، ويحلق رأسه.. وهم سوف يفعلون ما يفعل..

وخرج النبى وفعل ذلك ..صلى ونحر هديه.. وحلق رأسه للعمرة.. و.. بدأ المسلمون يفعلون ما فعله الرسول.. بعضهم حلق.. وبعضهم قصر شعره..

وقال رسول الله ﷺ:

-« يرحم الله المحلقين »..

قالوا:

- يا رسول الله والمقصرين.

- يرحم الله المحلقين.

- والمقصرين يا رسول الله.

- يرحم الله المحلقين.

- والمقصرين يا رسول الله.

- والمقصرين.

سألوا النبى: فلم ظاهرت يا رسول الله المحلقين دون المقصرين ؟

قال الرسول الكريم: لأنهم لم يشكوا فى الله ورسوله .

عشرون يوما قضاها الرسول وأصحابه فى الحديبية، ثم ركب النبى العظيم ناقته (القصواء) متجها بها صوب المدينة.. والمسلمون خلفه.. وفى الطريق نزل وحى السماء:

﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ﴿١﴾ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴿٣﴾ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ

وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾ لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِندَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ [الفتح: ١ إلى آخر السورة].

وتقدم عمر إلى الرسول قائلا:

- أوفتح يا رسول الله ؟

- نعم والذى نفسى بيده إنه لفتح.

وتناهى إلى سمع النبى قول أحدهم:

- ما هذا بفتح لقد صدونا عن البيت وعن هدينا.

فقال عليه الصلاة والسلام:

-« بئس الكلام.. بل هو أعظم الفتح، لقد رضى المشركون أن يدفعوكم بالبراح عن بلادهم وسألوكم القضية ويربحوا إليكم فى الأمان. وقد رأوا منكم ما كرهوا، وأظهركم الله عليهم وردكم الله سالمين مأجورين فهو أعظم الفتوح..»..

وأخذ النبى ﷺ يذكرهم بالمواقف التى مر بها المسلمون .. وكيف نجاهم الله منها.. قال لهم:

-« أنسيتم يوم أحد إذ تصعدون ولا تلوون على أحد، وأنا أدعوكم فى أخراكم ؟..

أنسيتم يوم الأحزاب إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار، وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا »..

وتذكر المسلمون كل هذه الأحداث.. وأيقنوا أن رسول الله ﷺ أبعد نظرا لأنه يرى بنور الله..

وتمضى الأيام.. وتتكشف الأمور.. وما خفى عن المسلمين..

لقد كان صلح الحديبية فتحا ونصرا بكل المقاييس.. فمكة قد اعترفت بأن المسلمين أنداد لها.. بدليل أنها فاوضتهم بعد أن كانت لا ترى حلا لها مع المسلمين سوى السيف، وأن المسلم الذى يظل على دينه فى مكة لم يخسر شيئا فالإيمان فى قلبه يلهمه السكينة والأمان.. والذى يرتد من المسلمين إلى مكة مزعزع العقيدة لا فائدة ترجى منه.. وكانت الهدنة فرصة لانتشار الإسلام فى مختلف القبائل العربية بعد أن آمن المسلمين من هجوم قريش.. وقد شهد المسلمون بعد عامين فقط من هذا الصلح عندما انتهكت مكة الاتفاقية، ففتح المسلمون مكة نفسها بجيش هائل بلغ تعداده عشرة آلاف مقاتل.

والأيام تمضى.. ويعرف المسلمون أن هذا الصلح كان بالفعل فتحا.. فهم يرون مثلا أحد المسلمين يفر من مكة إلى المدينة وهو أبو بصير.. يعلن إسلامه للرسول، ويتمنى أن يعيش مع اخوانه المسلمين، ولكن قريش تأبى عليه ذلك، وتطلب من النبى أن يرده إلى مكة حسب الاتفاق، وترسل مكة من يأخذه رجل من بنى عامر ومولى لهم.. ويوافق الرسول أن يعود الرجل إلى مكة حسب الاتفاقية.. والرجل يخاف أن يفتن فى دينه. وفى الطريق إلى مكة يقتل أبو بصير مبعوث مكة، ويفر المولى إلى النبى يخبره بالذى حدث من قتل أبى بصير لمبعوث مكة.. ويأتى الرجل يقول للنبى أنه قد وفى بعهده، أما هو فلن يرضى لنفسه أن يفتن فى دينه، وتوجه إلى مكان على ساحل البحر الأحمر.. وما كاد يعلم قصته المستضعفون من المسلمين فى مكة حتى هرعوا إليه.. وأصبحوا يهددون قوافل مكة التجارية المتجهة إلى الشام.. وهكذا شعرت مكة بأن هذا الشرط الذى اشترطته على النبى أن يرد إليها من أسلم لم يكن فى صالح مكة، ولكن كان فى صالح المسلمين..

والعجيب أن أهل مكة طلبوا من النبى أن يحميهم من الخارجين عليها من المسلمين أو الذين فروا مع أبى بصير وهددوا تجارتها إلى الشام.. وأنهم

لا يتمسكون بهذا الشرط أن يعيد إليهم من أسلم.. وطلبوا أن يقبلهم فى المدينة حتى لا يتصرفوا إلا بأمر ويأمنوا خطرهم.. وهكذا كشف المسلمون بأنفسهم أن الشرط الذى تصوروه امتهانا لكرامتهم كان عبئا على قريش وليس على المسلمين..

وإذا كان النبى فى هذه الاتفاقية، قد وافق على أن يرد من يسلم إلى أهل مكة، فإن هذا الشرط لم يطبقه النبى على المسلمات.. لأن المسلمة محرمة بحكم الإسلام على زوجها المشرك.. وقد حدث أن فرت أم كلثوم بنت عقبة ابن أبى معيط إلى المدينة بعد الهدنة، وحاول أخوها عمارة ردها إلى مكة إلا أن النبى رفض ذلك.. وأن هذا الشرط ينطبق على الذكور لا على الإناث.. فقد نزل قوله تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَآتُوهُمْ مَا أَنْفَقُوا وَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَاسْأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنْفَقُوا ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [**الممتحنة**: ١٠].

وهكذا عرف المسلمون أن هذا الصلح كان فتحا.. وأن نبى الله لا ينطق عن الهوى.. وأنه يرى أعمق وأبعد مما يرون ..وأن شفافية النبى ..واتصاله بالملأ الأعلى قمة لا يصل إليها من البشر سواه..

فالإسلام بعد هذا الصلح قد سلك طريقه نحو الانتشار السريع فى شبه الجزيرة العربية، وأخذ شكله العالمى بأن أخذ النبى يرسل إلى ملوك العالم وقادته يدعوهم للإسلام.. لأن الإسلام لم ينزل إلى العرب وحدهم.. ولكن إلى الناس كافة.. وصدق جل علاه:

﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيداً ﴾ [**الفتح**: ٢٨].

عقب صلح الحديبية.. ابتدأ الناس فى المدينة يتأملون ما مر من أحداث.. وموقفهم من الرسول.. واتضح لهم بُعد نظر النبى الخاتم.. فهو لا ينطق عن الهوى.. والناقة عندما بركت عند الحديبية لم يكن ذلك إلا أمرا من الله ..والله وحده الذى يعرف الغيب وما تأتى به الأيام.. وما ظنوه هزيمة وانكسار، كان نصرا وفتحا مبينا..

ولم يكن غريبا أن يكون أقرب الناس إلى صدر النبى هو أبو بكر الصديق.. فإيمانه عميق راسخ كرسوخ الجبال.. لم يتردد لحظة فى تصديق كل ما جاء على لسان نبى الله.. ولا وهنت له عزيمة،..وهناك موقف أورده البخارى..

حدث يوما خلاف بين الصديق أبى بكر وعمر بن الخطاب، وذهب أبو بكر يشكو ذلك إلى النبى وكان النبى يجلس بين أصحابه، ورأى الصديق من بعيد وقد تغير وجهه.. حتى إذا ما جلس قال للنبى عليه الصلاة والسلام:

- يا رسول الله إنه كان بينى وبين ابن الخطاب شئ فأسرعت إليه ثم ندمت، فسألته أن يغفر لى، فأبى على فأقبلت إليك.

فقال النبى ﷺ:

-« يغفر الله لك يا أبا بكر.. يغفر الله لك يا أبا بكر.. يغفر الله لك يا أبا بكر »..

ولكن الغضب لم يطل بابن الخطاب فذهب إلى صديقه أبى بكر فى منزله ولم يجده، فعلم أنه عند الرسول، فتوجه حيث النبى ﷺ..وتغير وجه النبى عندما رأى عمر، وخشى الصديق على صاحبه، فقال للنبى عليه الصلاة والسلام:

- يا رسول الله والله أنا كنت أظلم. والله أنا كنت أظلم..

وهنا يبدو جلال الصداقة بين أبى بكر وعمر، فأبو بكر يقول للنبى أنه كان هو المخطئ فى حق عمر..

وقال النبى عليه الصلاة والسلام:

- أن الله بعثنى إليكم فقلتم كذبت وقال أبو بكر صدق..

وآسانى بنفسه وماله.. فهل أنتم تاركون لى صاحبى.. فهل أنتم تاركون لى صاحبى..

* * *

obeikandl.com